المسألة اللغوية في المغرب العربي وهوية انتماء النخب المثقفة

The Linguistic Issue in the Maghreb and Identity Belonging of the educated Elite

أ.د.سعيدي محمد

كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية–جامعة تلمسان (الجزائر)،

msaidi45@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021-10-22 **تاريخ القبول**: 2021-12-23 **تاريخ النشر**: 2021-12-30

ملخص: نسعى في هذه الدراسة إلى مساءلة المشهد اللغوي المغاربي وما صاحبه من صراعات ثقافية، واجتماعية، وسياسية، للنخب المثقفة والتي تباينت واختلفت مواقفها إزاء المسألة اللغوية بصفة عامة. لقد تعددت الأطر اللغوية التعبيرية ، واختلفت في الأقطار المغاربية ،واختلفت معها الخطابات ومواقف النخب المثقفة. فكل فريق تبنى لونا لغويا عنوانا لانتماءاته المعرفية والاديولوجية(اللغة العربية ودعاة التعريب واللغة الفرنسية ودعاة الفرنسة واللغات الأمازيغية ودعاة الأمازيغية) .فلقد حملت كل جماعة مثقفة إطارها اللغوي حمولات رمزية ودلالية وظيفية تعدت في كثير من الأحيان الإطار التعبيري اللغوي . الأمر الذي جعل منه رمزا لنخبة مثقفة وامتدادا لهويتها الاجتماعية والثقافية والسياسية والعقائدية بامتياز، كما فتح المجال واسعا لهويات لغوية وثقافية واديولوجية مغاربية متعددة بتعدد المرجعيات والمقاصد...

الكلمات المفتاحية: اللغة؛اللهجة؛ الوعي؛الاديولوجيا؛الهوية؛الانتماء؛الصراع

Abstract : We intend in this study to question about the linguistic landscape in the Maghreb and the cultural, social, and political conflicts of the educated elite, with its differences and positions, regarding the linguistic issue in general. There were, indeed, different significant linguistic frameworks in the different countries of the Maghreb with conflicting views and positions of their educated elite. Each group adopted a linguistic icon to his intellectual and ideological belonging (the Arabic language and the advocates of Arabization, the French language in defense of French, and the Berber defending Tamazight) and each group identified itself with a linguistic trait carrying symbolic, cognitive and functional ethics that were far beyond the linguistic platform.

Key words: the language-the dialect-the conscious-ideology-identity-conflict.

المؤلف المرسل: سعيدي محمد، **الإيميل**: msaidi45@yahoo.fr

1. التقديم:

إن المقاربة السوسيولغوية للمشهد اللغوي المغاربي منذ استقلال هذه الأوطان لم يكن هادئا وبسيطا وحتى بريئا.لقد ارتبط ارتباطا عضويا بالمرجعيات التاريخية، والثقافية، والاديولوجية لهذه النخب، والتي عاشت في صراع مع الذات ومع الأخر (الغريب–القريب)ابن الوطن الواحد والتكوين اللغوي المختلف.لقد قسمت المسألة اللغوية مثقفي الوطن الواحد إلى تكتلات وانتماءات مختلفة.حيث أصبح كل إطار تعبيري في حقيقة الأمر رمزا لنخبة مثقفة وامتدادا لهويتها الاجتماعية والثقافية والسياسية والعقائدية بامتياز، الأمر الذي فتح المجال واسعا لهويات لغوية وثقافية واديولوجية مغاربية متعددة بتعدد المرجعيات والمقاصد...

إن الحديث عن اللغة في بلدان المغرب العربي الثلاثة خاصة(الجزائر والمغرب وتونس) هو في حقيقة الأمر حديث لغوي وسياسي واديولوجي بامتياز، فهو حديث عن تاريخ ،وثقافة ،وهوية ،من حيث الانتماء الثقافي، والفكري ،والتاريخي ،والاجتماعي، والسياسي، والاديولوجي،والعقائدي، والحضاري ...وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة المراحل التاريخية، والسياسية، والثقافية ،والاديولوجية للإنسان ألمغاربي، وللمجتمع ألمغاربي ،ومدى تفاعله مع لغاته ومع تاريخه ...إن المسيرة اللغوية المغاربية سواء في خفاءها أو في تجلياته تبقى مرتبطة ارتباطا رمزيا بهويات متعددة ...وهذا ما سوف نبينه بالدراسة والتحليل من خلال أهم المحطات التاريخية ،والسياسية ،والثقافية للمجتمع المغاربي ولنخبه ،في مادة اللغة وهوية الانتماء.

2.العرض والتحليل:

يثير الحديث عن المشهد اللغوي بالمغرب العربي عددا من التساؤلات اللغوية، والثقافية، والاجتماعية، والسياسية، والتاريخية، والحضارية،والعقائدية، والإيديولوجية.فهو حديث صعب، ومعقد، وشائك، وحساس.كما انه يشكل حقلا ملغما وقابل للانفجار في أية لحظة من اللحظات الزمن المغاربي الهش .فلا يمكن أبدا الاعتقاد أن المسالة اللغوية في بلدان المغرب عامة ،هي مسألة تعبيرية تواصلية فقط ،والحديث عنها يقف عند حدود الوظيفة البسيطة والأولى والأساسية للغة والتي لا تكاد تخرج عن الإطار العام لكل

اللغات ،والتي يقول عنها اللغويون أنها مجموعة أصوات أو رموز أو إشارات صوتية يعبر بها كل قوم عن أحاسيسهم وأغراضهم أو هي." تعبير عن ملكة اللسان الخاصة بالجنس البشري يستخدم أعضاء جماعة صوتية للتعبير والتواصل والتصرف"(بياربونت وميشال ايزار،2006،ص.769). إن الحديث عن اللغة قد يتعدى في كثير من المحطات هذا التعريف التقني والوظيفي البسيط ،كون اللغة مجموعة عناصر صوتية يعبر بها الناس عن رغباتهم وعن أغراضهم.فاللغة هي هذه الوظائف الأولية والإجرائية مضاف إليها وظائف أخرى يحددها السياق والمقاصد والمرجعيات.فاللغة هي الشخصية. واللغة هي الثقافة. واللغة هي التاريخ. واللغة هي الذاكرة. واللغة هي الهوية. واللغة هي العلم. واللغة هي الأدب. واللغة هي الإبداع. واللغة هي الفكر... وبصفة عامة، فإن اللغة هي الإنسان بكل جوارحه، وأبعاده، وأحاسيسه، ورغباته، وطموحاته، وآماله ،وآلامه. وقد نختزل المسافة الوظيفية والدلالية العامة والشاملة لماهية اللغة لنقول أن اللغة هي الثقافة في مفهومه الواسع والشامل أو كما يحلو للأنثروبولوجيين بتسميته بالمفهوم التايلوري للثقافة والذي يحدده في المعنى القائل أن" اللغة مهما كان مستواها ومستوى الناطقين بها، فهي ثقافة"، أو كما ورد في معجم الاثنولوجيا والأنثروبولوجيا "فبما أن للغات ،من بين مهامها أخرى،مهمة نقل الثقافة، فان ذلك خلف تأثيرا متبادلا بين اللغة والثقافة وجعلهما مظهرين لمعرفة مشتركة. وهما تشكلان أحيانا الهوية الأساسية للجماعة البشرية"(بياربونت وميشال ايزار،2006،ص.762). ومن هذا المنطلق، نقول أن المشهد اللغوي المغاربي يتعدى المستوى التعبيري العام ليساءل محطات مادية، وسلوكية، ومعنوية أكثر عمقا، وأكثر إشكالا.فاللغة في المجتمع المغاربي، فهي خطاب ثقافي، وفكري، والتاريخي، واجتماعي، وسياسي، واديولوجي، وحضاري، وعقائدي. وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة المراحل التاريخية، والسياسية، والثقافية للإنسان ألمغاربي وللمجتمع ألمغاربي بصفة عامة، ومدى تفاعله مع لغاته الكائنة والممكنة...

ومن هذا المنطلق، فان الحقل اللغوي المغاربي "ملغم بالرهانات الرمزية المرتبطة بالمسألة الهوياتية، ومن ثم ببناء الدولة والمجتمع.فإذا كان من شأن اتصال اللغات أن يؤدي إلى ردود أفعال صفائية وإلزامية تميل إلى

سد سوق اللغات أمام الخارجي والغريب،والأخر المفترض أنه قد يفسد صفاء أصليا،فذلك لأن المسألة اللغوية لا تستلزم فقط مقاربة تقنية.وأكيد أننا قد نناقش مدى ملائمة هذه التدابير من موقف توجه تاريخي ، ومنها خاصة نجاعة الإجراءات القائمة على الحفاظ على الهوية ، وهو مفهوم متعاظل إذا كان الأمر كذلك."(أحمد بوكوس ،2013،ص.77)

3. المشهد اللغوي المغاربي:

لقد عرف المجتمع ألمغاربي لغات ولهجات عديدة ومتنوعة والتي سوف يتحول بعض لهجاتها إلى لغات وطنية ورسمية (حالة اللهجة الأمازيغية في الجزائر والمغرب).

فان نحن سمحنا لأنفسنا تعداد هذه اللغات، نقول أنها تتكون من اللغات التالية: اللغة العربية الفصحى، أو كما يسميها البعض باللغة الرسمية أو اللغة المدرسية ،واللغات الأمازيغية أو البربرية بمختلف أنواعها وأشكالها العديدة والمتنوعة الحية والممارسة في العديد من المناطق في المغرب والجزائر وموريتانيا وليبيا وتونس كالأمازيغية، والميزابية، والشاوية،والترقية، والحسانية، والشلحية، والريفية، والشنوائية، والتمشقتية،... واللغة العربية الفصحى وما تفرع عنها من لهجات عربية والتي تلونت ببعض الألوان الصرفية والصوتية المحلية، و أصبحت الطابع المميز للعديد من مناطق المغرب العربي، مثل المنطوق المحلي التلمساني، أو الجيجلي، أو الغزواتي، أو الفاسي، أو الرباطي، أو التونسي، أو الوهراني، أو الصحراوي، أو الريفي،أوالطنجوي،أو البيضاوي،الخ...

واللغة الفرنسية والتي ارتبط حضورها القوي بالمرحلة الاستعمارية الفرنسية سواء كاستعمار غاشم مثل حالة الجزائر (1830 إلى 1962)، أو كاستعمار متستر تحت غطاء الحماية مثل حالة المغرب (1912 الى1956) وتونس (1936 إلى 1956). فلا تزال اللغة الفرنسية باسطة حضورها ونفوذها على المشهد اللغوي ألمغاربي بقوة كبيرة منافسة في ذلك صاحبتي الدار والمقام، أي اللغة العربية والأمازيغية في عدد كبير من القطاعات السياسية،والإدارية، والثقافية، والتعليمية، والتربوية، والاقتصادية، والاجتماعية، على الرغم من كل المحاولات التي قامت بها حكومات الدول المغاربية من اجل الحد من هذه السطوة والسيطرة اللغوية

الفرنسية والتي اعتبر قادة الشعوب المغاربية حضورها أو القضاء عليها مسألة مصيرية مرتبطة ارتباطا عضويا بمسألة الهوية والاستقلال.ونشير في هذا الصدد إلى حالة الجزائر وما أبدعته من قوانين رسمية من اجل ما أسمته الحكومات الجزائرية المتعاقبة منذ الاستقلال بحركة التعريب.لقد شكلت اللغة العربية هاجسا وطنيا لا يقل أهمية عن الاستقلال في حد ذاته، خاصة وأن اللغة الفرنسية والتي يعتبر البعض حضورها في المؤسسات الإدارية والتعليمية امتدادا للاديولوجية الاستعمارية لا بد من محاربتها حتى يكتمل الاستقلال.وفي اعتقادنا، أن الجزائر هي أكثر الدول العربية التي تصارعت مع الزمن، ومع التاريخ ،ومع الاديولوجيات المختلفة من اجل اللغة العربية. وهي من الدول العربية التي جعلت من اللغة العربية مسألة مصير، وهوية،وشخصية وطنية، وحرية، واستقلال. نذكر على سبيل المثال بعض من هذه الترسانة القانونية التي سطرتها الحكومة الجزائرية منذ الاستقلال أي منذ الخامس من جوليت 1962:

- قانون 26-4-1968:خاص بإجبارية تعلم ومعرفة اللغة العربية أو كما اصطلح على تسميتها باللغة الوطنية على كل الموظفين العاملين في القطاع الإداري.
- قانون19-2-1970:خاص بإجبارية استعمال اللغة العربية في كتابة وتحرير كل الوثائق الإدارية والأحوال المدنية.
- قانون 10-1-1973:تعميم تعريب الأختام الرسمية.
- قانون16-4-1976:إجبارية تعريب المنظومة التعليمية والتكوين.
- قانون 19-8-1986:إنشاء المجلس الأعلى للغة العربية.
- دستور 1989:المادة الثالثة :اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية.
- قانون 16-1-1991:قانون استعمال اللغة العربية، و جاء هذا القانون عاما وشاملا لكل القوانين والمراسيم السابقة حول اللغة العربية. و صادق على هذا القانون المجلس الشعبي الوطني أيام رئاسة السيد شادلي بن جديد للجزائر.وجاء هذا القانون والذي تعدى عدد مواده الأربعين

مادة قانونية كلها تأمر بإجبارية تعميم استعمال اللغة العربية في كل القطاعات الإدارية، والتعليمية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية.كما احتوى هذا القانون عددا من الأوامر والنواهي والعقوبات ضد كل شخص أو هيئة خاصة أو عمومية تسيء إلى اللغة العربية من حيث الاستعمال والممارسة والكتابة... وقد نص هذا القانون بصفة عامة على أن اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية للدولة الجزائرية، وهي أيضا مقوم من مقومات الشخصية الوطنية العربية الإسلامية، وقيمة ثابتة من ثوابت الأمة الجزائرية وهوية انتماءها التاريخي، والحضاري، والديني، وان ترقيتها وحمايتها، وصيانتها ،وتطويرها، واستعمالها في كل القطاعات، وعلى جميع المستويات، واجب وطني، وضرورة ملحة، ومظهر من مظاهر الاستقلال، والحرية، والسيادة الوطنية.ومن هذا المنطلق، لن تتسامح الدولة ومؤسساتها عن كل تهاون وتخاذل في الدفاع عن اللغة العربية. ومن ثم، فان كل مواطن مهما كان انتماءه الاجتماعي، أو الثقافي، أو السياسي، أو العلمي، مطالب بحماية اللغة العربية والسهر من اجل حسن استعمالها. فان الدولة وباقي مؤسساتها قد تسلط العقوبات ضد كل من تخول له نفسه واديولوجيته بالإساءة إلى هذه اللغة من حيث الكتابة العربية، والحرف العربي الأصيل، والقراءة بأصواتها الخاصة، والعمل بها وفق قواعد وقوانين التحرير في مجال الإدارة، والتعليم، والتربية، والثقافة، والمعاملات الاقتصادية والسياسية...

إن الحديث عن اللغة الفرنسية، يقودنا أيضا إلى الحديث عن لغات أوروبية أخرى، استطاعت أن تصنع لنفسها كيانا لغويا في أحضان الثقافة اللغوية المغاربية بحكم بعض المحطات من تاريخ بعض مناطق المغرب العربي، مثل اللغة الاسبانية في بعض الجهات من المغرب والجزائر، واللغة البرتغالية في بعض المناطق من المغرب، واللغة الايطالية في ليبيا، وبعض الجهات من تونس...

تيبولوجية المشهد الثقافي والاجتماعي اللغوي المغاربي:

وقد كان لهذا المشهد اللغوي المتعدد في أشكاله ومصادره أثار عميقة على المشهد الاجتماعي، والثقافي، والسياسي المغاربي، حيث ابرز لنا إحدى عشر حالة سوسيولغوية وهي:

1- فئة أحادية اللغة:وتضم شرائح اجتماعية لا تتحدث أكثر من لغة. وهي على نوعين :

ا. فئة لا تعرف لغة أخرى غير اللهجة العربية.

ب. فئة لا تعرف لغة أخرى غير اللهجة الأمازيغية.

2- فئة مزدوجة اللغة: وتضم شرائح اجتماعية تمتلك وتتحدث لغتين اثنتين وهي على خمسة أنواع:

ا.فئة تعرف اللهجة العربية واللغة العربية الفصحى.

ب.فئة تعرف اللهجة الأمازيغية واللغة العربية الفصحى.

ج.فئة تعرف اللهجة العربية واللغة الفرنسية.

د.فئة تعرف اللهجة الأمازيغية واللغة الفرنسية.

هـ.فئة تعرف اللهجة الأمازيغية واللهجة العربية.

3- فئة ثلاثية اللغة:وتضم شرائح اجتماعية تمتلك وتتحدث ثلاث لغات وهي على أربعة أنواع:

ا.فئة تعرف اللهجة العربية واللغة العربية الفصحى واللغة الفرنسية.

ب.فئة تعرف اللهجة الأمازيغية واللغة العربية الفصحى واللغة الفرنسية .

ج.فئة تعرف اللهجة العربية واللهجة الأمازيغية واللغة العربية الفصحى.

د.فئة تعرف اللهجة الأمازيغية واللهجة العربية واللغة الفرنسية.

ولعل ما يمكن الإشارة إليه أن عددا من الباحثين المهتمين بالمسألة اللغوية في المجتمعات المغاربية قد استنتجوا استنتاجات خاصة معللين ذلك وفق مبدأ الممارسة والتاريخ حيث يعتبرون أن "الثنائية اللغوية الأمازيغية عربية دارجة قد تشكل الوضعية الأكثر شيوعا مادامت تتعلق بالناطقين ذوي اللسان الأمازيغي بوصفه لغة أم، و بمن لهم اتصال بالعربية في أنشطتهم الاجتماعية المهنية خاصة في المدينة. وقد تكون

الثنائية اللغوية منسقة أو مركبة.فهي منسقة إذا كان الناطقون يستخدمون اللغات بالتناوب حسب الوضعية والمخاطب والموضوع الخ...وهي مركبة إذا كان الناطقون يمزجون اللغات.أما فيما يتعلق بالتعدد اللغوي ، فهو ناتج عن الناطقين الذين يجيدون ،فضلا عن لغتهم الأم والعربية الدارجة ،لغات أخرى، و نعني بها العربية الفصحى، والفرنسية، والاسبانية أو الانكليزية كذلك."(بوكوس،2013،ص.82)

غير أن المشهد اللغوي ألمغاربي المعقد لم يتوقف عند حدود المعرفة اللغوية والممارسة اللغوية، فلقد عرف شرخا اجتماعيا، وثقافيا، وسياسيا عميقا ،حيث تحولت معه المسألة اللغوية إلى تعبير عن انتماءات ثقافية، واجتماعية، وسياسية، وإيديولوجية ، واقتصادية ، كادت أن تفجر الجسد الاجتماعي ألمغاربي، وكادت أن تتحول اللغة إلى عنصر تفرقة وتطاحن، وطابع مميز للفئات، وللطبقات، وللولاءات العرقية، والجهوية، والاديولوجية . وقد صاحب هذا الواقع اللغوي أيضا عدد من الأزمات، والانقسامات، والانشقاقات، مست هرم السلطات المغاربية. ومن ثم أصبحت المسألة اللغوية مطلبا جهويا، وعرقيا، وطبقيا، وسياسيا ، فكل فئة تطالب بترسيم لغتها، والاعتراف بها، ودسترتها وتعليمها في المؤسسات التعليمية، وإدراجها في المؤسسات الإدارية، لتصبح لغة رسمية ممارسة إداريا.وقد كانت هذه المطالب سببا في ظهور عدد كبير من الجمعيات الثقافية، والسياسية، والحزبية، والتي تأسست أصلا حول المسالة اللغوية والثقافية. وعرفت العديد من مناطق المغرب العربي انتفاضات، ومظاهرات، واعتصام، وإضرابات، واحتجاجات كبيرة، وفي كثير من الأحيان كانت دامية.كما أن العديد من هذه الجمعيات قد تبنت المطلب اللغوي كمطلب وطني، وجندت له طاقات نضالية كبيرة.

4.الحركات الأمازيغية: المسيرة والمقاصد:

وفي هذا الصدد، لا بد من الحديث عن الحركات الثقافية البربرية والأمازيغية في الجزائر والمغرب، حيث كان مطلبهما واحدا وهو الاعتراف باللغة الأمازيغية ،وبالثقافة الأمازيغية، كمكون أساسي وثابت للهوية الوطنية، والعمل على نشرها وتعليمها في كل المؤسسات التعليمية، والتربوية، والثقافية الوطنية. ونشير إلى أن هذا النضال لم يكن سهلا وبسيطا ،لقد تعرض دعاته إلى إهانات و اعتقالات كثيرة. لان الأنظمة

المغاربية وقتئذ لم تكن لتقبل مثل هذه الأفكار، وهذه الأطروحات، وهذه المطالب، والتي كانت تقرأها قراءات اديولوجية ، واصفة وناعتة دعاة الأمازيغية بالخطر على اللغة العربية، وعلى الإسلام، وحتى على الوحدة الوطنية. وأنهم يحملون اديولوجية استعمارية ،أو أنهم من مخلفات المنظومة الكولونيالية والتي أوجدتهم وفق اديولوجيتها الكلاسيكية التي كانت تنادي بها أيام تواجدها الاستعماري ، والهادفة إلى خلق النعرات الاثنية والجهوية القائمة على الاختلاف اللغوي من اجل تجزئة الوطن الواحد والشعب الواحد، ولم تجد أحسن من المسألة اللغوية والثقافية. فقد صنعت في المغرب ما يسمى الظهير البربري وهو قانون سنته الإدارة الفرنسية في المغرب عام 1930من اجل خلق التفرقة بين العرب والبربر الأمازيغ في المغرب، وخلق ثقافة التمييز العرقي، وبث سموم العداء بين أبناء الشعب الواحد . ومن العناصر الأساسية للظهير البربري الذي سنته الإدارة الفرنسية، ضرورة استعمال اللهجة الأمازيغية بجانب اللغة الفرنسية، و كتابتها بالحرف اللاتيني."إن الظهير البربري هو مجموعة من الأوامر والتعليمات الإدارية،لمنح البربر صفة الخصوصية لخلق النزعة البربرية.من اجل التمهيد لفصل العرب عن البربر،كان الهدف منه وضع القبائل في صراع مع السلطان والمخزن، وكان السبيل إلى ذلك تشجيع النزعة البربرية،لتظل في دورتها في دائرة مغلقة.(عزالدين المناصرة، 2004، ص.225) وفي الجزائر سعت إلى نشر فكرة الشعب القبائلي المتميز عن الشعب الجزائري العربي، جنسا ، وانتماء بيولوجيا، وعرقا، وثقافة، بأنه جنس شبيه الجنس الأوروبي.لقد كانت تعتقد السلطات المغاربية أن مطالب الحركات البربرية تدخل في هذا السياق، والذي قد يشكل خطرا على الوحدة الوطنية، والثقافية الوطنية، وعلى اللغة الوطنية، أي العربية .غير أن التحولات الفكرية، والثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية التي عرفتها العديد من الدول المغاربية، من جهة، ومن جهة أخرى، إصرار وتمسك هذه الحركات بمطالبها، ومساندة الشارع الاجتماعي والثقافي لها، فرض على الأنظمة المغاربية بان تغير رأيها، وتتراجع عن مواقفها المتزمتة والمنغلقة ،وأن تدخل في حوار جديد وبناء، ووفق رؤية جديدة لمفهوم الهوية، والثقافة ، والتاريخ الوطني. وقد أفضى هذا الحوار الوطني الشامل إلى إعادة

النظر في العديد من المسائل اللغوية والثقافية. ولعل أهم مكسب ثقافي وسياسي وهو ذلك الاعتراف التاريخي بالحركات، والجمعيات الثقافية الأمازيغية وشرعية نضالها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، الاعتراف بمطالبها على أساس أنها مطالب وطنية مرتبطة ارتباطا عضويا بمفهوم الهوية الوطنيةومكوناتها، وشرعية الانتماء التاريخي الأمازيغي للشعب المغاربي "وللمنطقة المغاربية التي شكلت عبر العصور مجال اتصالات ومواجهات وامتزاج بين الشعوب ولغاتها و ثقافاتها. وهكذا استقبلت الأمازيغية كلا من البونيقية، والإغريقية، واللاتينية، والعربية، والفرنسية ،والاسبانية... ولا يزال باب الاستقبال مفتوحا.كما مورست الثنائية اللغوية في المنطقة على الدوام،إذا صح القول،إذ في عهد ماسينيسا(القرن الثالث قبل الميلاد) كانت النخبة الأمازيغية تتحدث الليبية البونيقية ،والإغريقية، واللاتينية. وتحدثت في عهد محمد خير الدين (القرن20)بالأمازيغية، والعربية، والفرنسية."(أحمد بوكوس،2013،ص. 81)

إن المسيرة النضالية للحركات الأمازيغية أو القبائلية أو البربرية في الجزائر وفي المغرب من حيث علاقتها بالسلطة أو من حيث أبعادها الجماهيرية الوطنية، لم تمر بنفس المسار النضالي وذلك لعدة اعتبارات تاريخية ،واجتماعية، وثقافية، وسياسية، خاصة بكل بلد ونخبته النضالية.

وكأن السلطة المغربية قد استفادت مبكرا من التجربة الجزائرية ومن الدرس الجزائري.فلقد استبقت الأحداث، ودخلت في حوار هادئ مع الحركات الأمازيغية المغربية، حيث أنها تبنت المطلب اللغوي، والثقافي، وهيئت له الشروط المادية، والبشرية، والإدارية، تفاديا للصراعات، وللعنف، وللانحراف الاجتماعي، والثقافي، والسياسي، والذي عرفته السلطة في الجزائر من خلال مواقفها المتزمتة ،والرافضة لمطالب الحركات الأمازيغية.فتم الاعتراف باللغة الأمازيغية كلغة رسمية وطنية لا تقل أهمية عن اللغة العربية في المدونة المغربية. كما تمت دسترتها في دستور فاتح يوليو 2011، وقد أنشئ لهذه المقاصد هيئات إدارية، وعلمية، و ثقافية، كبيرة تابعة للحكومة وللقصر الملكي الذي تكفل برعايتها ماديا ومعنويا. كما تم تأسيس الأكاديمية الملكية لترقية الثقافة الأمازيغية، والمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، والمجلس الوطني للغات والثقافات. "فلم تعد المسألة الأمازيغية مغيبة تماما في الخطاب الرسمي للدولة إلى حدود خطاب العرش

للملك الحسن الثاني لسنة 1994،الذي دعا فيه إلى تدريس اللهجات الأمازيغية.إلا أن الأمر سيختلف مع الحدث التاريخي لخطابي العرش ثم أجدير عام 2001 ،حيث أعلن الملك محمد السادس عن أسس سياسية ثقافية ولغوية جديدة اعتبرت فيها الأمازيغية مكونا أساسيا من مكونات الثقافة المغربية، والنهوض بها مسؤولية وطنية. وفي هذا المنحى تم إنشاء المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية والذي من مهامه الإسهام في الارتقاء بالثقافة الأمازيغية بتعاون مع السلطات الحكومية والمؤسسات المعنية. وفي إطار السياسات العمومية ، من اجل توفير الظروف المناسبة لإدراجها في المنظومة التربوية وضمان إشعاعها في الفضاء الاجتماعي، والثقافي، والإعلامي الوطني، والجهوي والمحلي."(أحمد بوكوس،2013 ص.146)في حين أن نضال الحركات الأمازيغية في الجزائر لم يكن هادئا، ولم يكن بريئا، وصل به الحد إلى إعلان صدمات ومعارك وخصومات مع النظام (Mohand Oulhadj Laceb Présentation de la problématique - Tamazight face aux défis de la modernité, 15-17 Juillet 2002 ,P.1)

.لقد دخلت هذه الحركات الأمازيغية في مواجهة قوية وعنيفة مع السلطة ومع وسائل الأمن.ففي عام 1980 انفجرت المسالة الأمازيغية بشكل حاد في منطقة القبائل وخاصة في مدينة تيزي وزو، وبجاية، والجزائر

العاصمة، والبويرة ،وعرفت شوارع هذه المدن مظاهرات كبيرة ضد النظام ،تطالب بالاعتراف بوطنية اللغة الأمازيغية وإجبارية دسترتها وتعليمها والعمل بها في المؤسسات الإدارية الرسمية، كلغة وطنية ورسمية. وقد تبنت وقتئذ العديد من الأحزاب، والجمعيات، والشخصيات الثقافية، والفنية، والسياسية، هذا المطلب .(حزب القوى الاشتراكية وحزب التجمع من اجل الثقافة والديموقراطية) .

ولا يمكن أبدا أن نتنكر لتلك المسيرات الطويلة والمظاهرات والإضرابات والاعتصام وخاصة في بعض المدن الجزائرية الكبرى، مثل الجزائر العاصمة، ومدينة تيزي وزو ، ومدينة بجاية، ومدينة وهران، ومدينة البويرة،لقد

كانت لهذه الحركات أثار كبيرة مست كل الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والسياسية في هذه المدن، التي تعطلت فيها الحياة بصورة رهيبة. نذكر على سبيل المثل الإضراب الذي أصاب المدارس والثانويات والجامعات، وخاصة في منطقة القبائل الكبرى، وبالضبط في مدينة تيزي وزو، حيث أغلقت المدارس أبوابها لمدة سنة دراسية كاملة1994-1995 . ..فقد انفجرت المظاهرات في هذه المناطق في يوم 20 افريل1980 .وكانت هذه المظاهرات عنيفة، و ترتبت عنها خسائر كبيرة الأمر، الذي أدى بالأطراف المتصارعة إلى استعمال كل أشكال العنف والاعتقالات .كما ذهبت السلطة مذاهب مختلفة من اجل تبرير رد فعلها ضد هذه الاحتجاجات معتبرة ذلك عملا غير وطني مسيء إلى الوحدة الوطنية،وخطر على الوطن، وعلى المواطن ،وممتلكاته. واصفة إياها بالحركة الرجعية المدعمة من الخارج، ومن أعداء الجزائر، وتسعى إلى فصل منطقة القبائل عن الجزائر، وعن الوطن وذلك وفق المنظومة الكولونيالية الاستعمارية الفرنسية التي كانت دائما وأبدا تسعى إلى ذلك أيام تواجدها في الجزائر.

ونشير إلى أن أحداث يوم 20أفريل من سنة 1980 أصبحت تعرف في السجيل التاريخي، وفي الذاكرة الوطنية عامة، والأمازيغية خاصة، بأحداث الربيع الأمازيغي، حيث يحتفل به كل سنة.

إن موقف السلطة وطبيعة رد فعلها العنيف والقمعي ضد هذه الحركات أدى إلى خروج هذه الأخيرة عن مطالبها الثقافية إلى مطالب سياسية، تطالب السلطة بالتنحية، وبسقوط النظام ألقسري الدكتاتوري الرافض للتعددية السياسية، والفكرية، والثقافية، واللغوية، وفتح المجال للفعل الديموقراطي، وحرية التعبير، والممارسة السياسية. وقد تم تدعيم هذه الحركات وهذه المطالب بتدخل العديد من الأحزاب التي تدعي بالجناح الديموقراطي والجمهوري ،وكذا الشخصيات الوطنية، والمثقفين، والفنانين، ذوي الشهرة الوطنية والعالمية. هذا بالإضافة إلى الطبيعة الشبابية للمكون البشري لهذه الحركات، والتي عرفت كيف تستثمر وتستقطب الشباب الجزائري.وقد شكلت هذه الحركات الثقافية والسياسية قوة كبيرة استطاعت أن تواجه السلطة، وتفرض صوتها ومطالبها،وهو الأمر الذي أدى بالدولة إلى ضرورة الجلوس مع هذه الحركات لتفاوض معها حول المسالة اللغة الأمازيغية والثقافة الأمازيغية. وقد أسفر عن هذه اللقاءات، وهذه

المفاوضات ، إبراز عدد من المكاسب، وعلى رأسها إنشاء المحافظة السامية للأمازيغية ، وهي مؤسسة تابعة للرئاسة الجمهورية وذلك بقرار رئاسي رقم 95_147بتاريخ 27 ماي1995 وقد أكلت لهذه المؤسسة العديد من الوظائف والمسؤوليات من حيث التكفل باللغة الأمازيغية ، بحثا، ودرسا، وتدريسا، ونشرا، وتطويرا، وتوفير كل الوسائل البشرية، والمادية، والتقنية، من اجل ترقيتها، وحمايتها، وصيانتها، من أي انحراف اديولوجي، قد يسيء إليها ،وإلى تاريخها، وإلى الهوية الوطنية .لقد تحملت هذه المحافظة مسؤولية نشر اللغة الأمازيغية، وضمان لها مكانة في كل القطاعات التربوية، والتعليمية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية ،والفنية، والإدارية...وقد سبق هذا الحدث السياسي والإداري والمتمثل في هذه المحافظة ،فتح قسمين لتدريس اللغة والثقافة الأمازيغية بجامعتي تيزي وزو وبجاية وكانت ذلك في عام 1990 .وكانت السلطة قبل كل هذا قد حاولت مص غضب هذه الحركات وما نتج عن ثورتها من تخوف من انتشار الفوضى والعنف، فعملت على فتح معهد يتكفل بهذه المطالب الثقافية التي كانت الحركات الأمازيغية تطالب بها دوما وأبدا. فسعت إلى إحداث المعهد الوطني للتعليم العالي في الثقافة الشعبية . و قد اختارت له مدينة تلمسان لتحتضنه ، وكان ذلك بقرار رئاسي مؤرخ في يوم 18 أوت 1984. وأكلت له المهمة التكفل بالتراث الشعبي الجزائري، والمغاربي، درسا وتدريسا ، وبحثا، وجمعا، وتدوينا.وسعت أيضا إلى جعل من هذا المعهد فضاء معرفيا وعلميا لتكوين إطارات تتكفل بعملية صيانة التراث الشعبي المادي، واللامادي، العربي والأمازيغي، وكل ما تزخر به الجزائر من أنواع ومظاهر ثقافية مادية ،ومعنوية، وسلوكية . وقد تم اختيار مدينة تلمسان مقرا لهذا المعهد على اعتبار أن هذه المدينة هي مدينة العلم ، والثقافة، والفكر، ومدينة العلماء والأولياء. وهي من حيث الموقع الجغرافي بعيدة عن المناطق الحساسة التي أثارت المسألة الأمازيغية.وبإمكانها أن تقوم بهذه المهمة بكل هدوء، وبكل روح علمية بعيدة عن الصراعات ... وقد وفرت الدولة كل الأطر البشرية والمادية لهذا المعهد الذي باشر أشغاله التعليمية خلال السنة الدراسية 1985و1986. ومنذ البداية حددت وزارة التعليم العالي

والبحث العلمي أن المعهد لا بد وان يضمن تكوينا عاليا ،أي خاص بالدراسات ما بعد التدرج، ولا يلتحق به إلا الطلبة الحاملون لشهادات الليسانس في العلوم الإنسانية والاجتماعية بعد إجراء مسابقة وطنية، يتم على إثرها اختيار عدد محدد من الطلبة الناجحين، والذين يخضعون إلى تكوين نظري ثم يباشرون أبحاثهم في إطار تحضير مذكرة ماجستير، وبعدها أطروحة دكتوراه في موضوع ذي صلة معرفية بالثقافة الشعبية في كل مكوناتها ومظاهرها وأشكالها. ومنذ ذلك التاريخ تم تكوين العشرات من الأساتذة الباحثين في مادة التراث الشعبي، وفي عدد من التخصصات العلمية التي تلامس عن قرب موضوع الثقافة الشعبية الجزائرية، كالأنثروبولوجيا، والأدب الشعبي، وعلم اللهجات، والفنون التقليدية...غير أن تلك الفعاليات والحركات الأمازيغية لم تتوقف عن نشاطها وعن مطالبها ،حيث واصلت مفاوضاتها مع السلطة دون هوادة أو انقطاع.كما أحست السلطة وقتئذ أن المساحة الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، بدأت تكبر وتتسع وتأخذ من القوة ما قد يشكل خطرا كبيرا على هذه السلطة في حد ذاتها ،حيث بالإضافة إلى عرقلة كل الأنشطة في منطقة القبائل، لقد انضمت العديد من الفعاليات السياسية إلى الحركات الأمازيغية ،وبدأت الحياة السياسية تعرف توترات خطيرة ،وهو الأمر الذي أدى بالسلطة إلى تغيير الكثير من مواقفها، ومن مبادئها الخاصة بالمسالة الأمازيغية، حيث أدرجتها ضمن المشاريع السياسية للمناقشة من اجل دسترتها وعرضها للاستفتاء شعبي...غير أن السلطة الجزائرية تراجعت عن فكرة الاستفتاء الشعبي، فقدمت المشروع وعرضته فقط على الغرفة:المجلس الشعبي الوطني لتصويت دون إنزاله للشعب. وقد تمت المصادقة عليه بنسبة كبيرة فاقت كل التوقعات . وكان ذلك في يوم الاثنين 8 ابريل من عام2002 . ومنذ هذا التاريخ دخلت اللغة الأمازيغية الدستور الجمهورية الجزائرية في مادته الثالثة معدلة والتي تنصص على أن اللغة الأمازيغية لغة وطنية. وقد عرفت هذه السنة الدخول الرسمي للغة الأمازيغية في المنظومة التربوية والتعليمية، حيث بدء تدريسها في العديد من المدارس والثانويات التي استطاعت أن توفر لطلبتها الإطار البشري الكفء والقادر على القيام بهذه المهمة. لم تكن هذه العملية التعليمية سهلة وبسيطة في غياب هذه الأطر البشرية المختصة، وفي غياب الكتاب، وكل الوسائل البيداغوجية، وكذا

السياسة التعليمية الخاصة بالأمازيغية من حيث تقنية الكتابة والتي طرحت جدالا عنيفا حتى بين دعاة الأمازيغية، الذين انقسموا على أنفسهم من حيث عملية اختيار طبيعة الخط. فالبعض فضل الخط العربي باعتبار أن اللغة الأمازيغية تنتمي إلى فصيلة اللغات الحامية السامية والمصنفة ضمن أسرة اللغات الأفروأسيوية. فهي قريبة من اللغة العربية أو كما يقول بعض المهتمين بهذا الموضوع فهي أختها، و يجمعهما عدد كبير من الأصوات المتشابهة. في حين أن البعض الأخر رفض رفضا قاطعا أن تكون للغة الأمازيغية أية علاقة باللغة العربية، و من ثم لا يمكن أن تكتب بالحرف العربي، ويفضلون الحرف اللاتيني، حيث يسعون إلى تقريب اللغة الأمازيغية من اللغات الأوروبية ذات الأصل اللاتيني. في حين أن فريق ثالث أكثر صلابة حيث يسعى إلى كتابة اللغة الأمازيغية بحروفها الأصلية أي حرف تفيناغ، غير أن هذه الأبجدية، وإن كانت أصلا خاصة باللغة الأمازيغية ،فهي تبقى ناقصة حيث ضاع العديد من حروفها...

كما نشير إلى انه إضافة إلى الطابع التعليمي المشروع والشرعي والدستوري للغة الأمازيغية، لقد عرف أيضا قطاع الإعلام السمعي البصري الدخول القوي لهذه اللغة التي أصبحت لغة العديد من الحصص والبرامج.كما تم فتح عدد من القنوات الإذاعية والتلفزيونية الوطنية الأمازيغية. ولم تعد اللغة الأمازيغية طابوا وممنوعا كما كان في العهد القديم...

فإذا كانت المسألة اللغوية في المغرب وفي الجزائر قد عرفت بعض التوترات تعدت في كثير من الأحيان المطلب اللغوي إلى مطالب سياسية ناقدة ومنتقدة النظام والسلطة، فان الأمر يكاد يختلف اختلافا جوهريا في تونس.فلم تطرح المسألة اللغوية بنفس الحدة والتوترات،ولم يعرف المجتمع التونسي تلك التصدعات العميقة التي عرفتها الجزائر والمغرب بنسبة اقل.فان الذين أثاروا المسألة اللغوية في تونس لم يخرجوا بها عن اطر المطالبة باللغة العربية التي لم تتمتع بالمكانة اللائقة بها في هذا المجتمع العربي المسلم، وبالتالي كان الطرح اللغوي التونسي مرتبطا ارتباطا عضويا بالمسألة الدينية الإسلامية،فاللغة والإسلام وجهان عضويان لعملة هوياتية واحدة، ومن ثم ،فان الهوية الجماعية للمجتمع التونسي هي هوية عربية إسلامية في الصميم،بمعنى

أن كلا من اللغة العربية والدين الإسلامي هما العاملان المشتركان لدى الأغلبية الساحقة من مواطني المجتمع التونسي(محمد الذوادي،تصدع الهوية العربية الإسلامية في المجتمع التونسي، 2014،العدد248- ص.19).إن الحديث عن المسألة اللغوية في المجتمع التونسي تمر حتما عبر المسار التعليمي، والثقافي، والاجتماعي، والسياسي، والإيديولوجي، للنخبة

التونسية والتي تقلدت مقاليد الحكم والمسؤوليات مباشرة بعد خروج الاستعمار الفرنسي من تونس عام1956 ويتجلى"ثقل دورها وهي ذات التعليم الاستعماري الفرنسي – الغربي، لغة، وفكرا، في إدارة البلاد بعد رحيل الفرنسيين،الأمر الذي أدى إلى بروز مشاكل لدى معظم تلك النخب لا مع الدين الإسلامي فقط وإنما مع اللغة العربية.

وبعبارة أخرى ،يصح القول بان النخب التونسية السياسية، والفكرية، صاحبة التعليم الفرنسي- الغربي تشكو منذ الفترة البورقيبية من أعراض مختلفة غير سليمة مع قطبي الهوية العربية الإسلامية للتونسيات والتونسيين باللغة العربية والإسلام(محمد الذوادي،2014،ص.20).

يكشف المشهد اللغوي التونسي مظهرا مخالفا عما اعتدنا عليه عند بعض النخب المغربية والجزائرية، ويتمثل في تلك الجاذبية القوية التي أصابت النخب الحاكمة في تونس مضافا إليها شلة كبيرة من المثقفين الذين لم يستطيعوا التحرر من اللغة الفرنسية وثقافتها حتى بعد مرحلة الاستقلال. وقد يظهر ذلك جليا على مستوى الهيئات التعليمية، والثقافية، والتربوية، والسياسية، والإدارية."فان أصحاب القرار السياسي والمثقفين والجامعيين في هذا المجتمع التونسي هم مفر نسو أو مزدوجو اللغة والثقافة ،بحيث يغلب عليهم تفضيل اللغة الفرنسية وثقافتها على اللغة العربية...بينما ينادي كثير من النخب التونسية بتهميش اللغة العربية، والثقافة الإسلامية العربية في عملية التحديث. وبعبارة أخرى،يهيمن على تلك النخب الاغتراب اللغوي الثقافي الذي يضر علاقاتهم بهوية الشعب التونسي العربية الإسلامية.ولذا يجوز القول أن التأثير السلبي لتعلم الفرنسية،لغةالمستعمر على اللغة العربية لدى تلك النخب انعكس سلبا على إسلام هؤلاء، نظرا للعلاقة الوطيدة بين اللغة العربية والدين الإسلامي(محمد الذوادي ،ص.20-20)

ونشير إلى أن هذه المواقف المناهضة للغة العربية وللإسلام قد أثرت تأثيرا كبيرا على الحركية الثقافية التونسية التي وجدت فيها فئة بطريقة آو بأخرى مقصية من الحياة الثقافية، والفكرية، والسياسية، والإدارية، التي صنعها أصحاب القرار وفق مقاصدهم ومقصاهم السياسي والاديولوجي، معتبرين أن المسألة اللغوية في أطروحاتها العربية منافية ومناقضة للتقدم وللرقي وللازدهار. وقد أدت هذه المواقف المعادية للغة العربية إلى غلق كل أبواب العمل، والنشاط الفكري، والتعليمي، والانتداب إلى جامعات، ومراكز علمية، أو إدارية تونسية لحاملي الشهادات العربية ولخريجي الجامعات العربية...وقد فتح هذا المجال باب الصراع اللغوي والاديولوجي داخل النخب التونسية ، التي كان فيها الاتجاه الفرانكفوني أقوى ،وذلك لما كان يتمتع به من امتيازات منذ الأيام الأولى من استقلال تونس، وكذا منذ حكم الرئيس الحبيب بورقيبة الذي عرف بمواقفه المعادية للغة العربية وللإسلام...وقد عملت النخب المثقفة المتفرنسة إلى السعي الحثيث من اجل محو كل معلم حضاري، أو فكري، أو تاريخي، يقرب انتماءها إلى العرب وإلى اللغة العربية، والى العروبة، وإلى الإسلام، حيث عملت من اجل إثارة مسألة انتماء تونس والشعب التونسي إلى مراحل قديمة قبل مجيء العرب المسلمين الفاتحين.فوجدت هذه النخب في أطروحات انتماء الشعب التونسي إلى الفينيقيين، والقرطاجيين، مادة فكرية ، وتاريخية، واديولوجية، تدعم بها مقولاتها التي من خلالها قطع صلة الانتماء التونسي إلى الهوية العربية الإسلامية. وقد اشتد الصراع بين النخب التونسية ،فريق يريد أن يحافظ على الانتماء العربي المسلم للشعب التونسي، وفريق آخر رافض هذا الدعوة، ومتنكرا لعروبة تونس، وشعبها العربي المسلم..."إن هوية الشعب التونسي هي هوية عربية إسلامية منذ الفتوحات العربية الإسلامية لافريقية_تونس.لا ينبغي خداع النفس بالنسبة لإمكانية استمرار الحضارة الفينيقية، والثقافية اللاتينية، والآثار اليونانية على الأرض التونسية...فالإسلام استطاع القضاء نهائيا على الكل .فافريقية تونس القرن ثامن كانت كما هي اليوم،أي بلد مسلم عربي.

إن المسألة اللغوية في تونس لم تطرح كما طرحت في المغرب وفي الجزائر وفق منظور سياسي عميق، ومشاغب، ومعاكس، ومتمرد، في كثير من محطاته. ولم تدخل النخب المعربة في صراع مع السلطة، وذلك لا لشيء إلا لان السلطة في حد حداثتها كانت متمسكة أكثر فأكثر بانتمائها اللغوي الذي ورثته عن الحقبة الاستعمارية ،والذي صنعت منه هويتها، ومصيرها، ومستقبلها، ومستقبل مصالحها، وعرفت كيف تقوي صفوفها، وكيف تتصدى لتيار اللغة العربية وللإسلام، واصفة إياهم بالأصوليين، والإرهابيين، فاتحة لهم كل السبل لزج بهم في السجون، والاعتقال، والنفي، والتعذيب . إن التاريخ السياسي التونسي في هذه المسألة، وخاصة في أيام الحكم البورقيبي، ومن بعده حكم زين العابدين بن علي، لخير دليل على هذه المعاناة التي تكبد مرارتها المعربين ودعاة اللغة العربية في تونس، والذين أصبح مطلبهم اللغوي معادلا ثقافيا، وفكريا، وايدولوجيا، في نظر السلطة للإرهاب.غير أن هذا لا ينفي وجود نخبة تونسية معربة قوية استطاعت أن تفرض نفسها في دنيا الفكر، والثقافة، والإبداع، متحدية النخب المتفرنسة ومن يدور في فلكها، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى، إن الطابع الحر والليبرالي الذي تبنته دولة تونس منذ استقلالها استطاع أن يضمن لتونس ولنخبها التفادي الصراع والمواجهة وسلوك كل واحد المسلك الذي يناسبه دون اصطدام ودون عنف. فكل واحد كما قالها ذات يوم الرئيس الحبيب بورقيبة ،حر في فكره، وفي ثقافته، وفي لغته ،وفي عقيدته... ولعل الجديد في المشهد اللغوي التونسي يتمثل في تلك الحركات الصغيرة التي صاحبت حرية الرأي ،وحرية التعبير، التي أصبح الشعب التونسي يتنعم بها بعد أحداث ثورة الياسمين التونسية .لقد ظهرت حركات جديدة تطالب بالاعتراف وبترقية اللغة والثقافة الأمازيغية في تونس.وهي حركات تتحرك في محيط جغرافي، ومعرفي، والثقافي، والسياسي ضيق جدا.لقد تبنت هذا المشروع معتمدة في ذلك وكخطوة أولى ضرورةصيانة، وحماية التراث المادي واللامادي الأمازيغي الموجود على ارض تونس، باعتباره جزء لا يتجزأ من تاريخ، ومن ذاكرة ،ومن هوية الشعب التونسي .غير أن هذه الأصوات تكاد لا تخرج عن إطار ضيق لم يكن له أي صدى في الظروف الحالية، في انتظار ما سوف تكشفه الأيام القادمة للمسألة الأمازيغية التونسية إن كتب لها المواصلة، وقوة الصمود، والتصدي، والنضال...

المسألة اللغوية في المغرب العربي وهوية انتماء النخب المثقفة

إن المسألة اللغوية المغاربية ليست هادئة وليست بريئة.فلقد اقترنت منذ استقلال الأوطان المغاربية بصراع قوي خلفته الإدارة الفرنسية الكولونيالية التي عملت جاهدة من اجل أن يبقى المغرب العربي تابعا لها لغويا، وثقافيا، واقتصاديا، وسياسيا.وتتجلى هذه المقاصد الكولونيالية في البقاء القوي للغة الفرنسية ،والتدعيم المباشر، وغير المباشر، والعلني، والسري، لفرنسا للنخب المغاربية المتفرنسة. حيث استطاعت أن تحدث المفارقة والاختلاف بين المفكرين، والمبدعين ،والكتاب المغاربيين،حين قسمت الأدباء المغاربيين إلى قسمين أو فريقين :الكتاب والمثقفين المعربين، والكتاب والمثقفين المتفرنسين،كما أنها استطاعت أن تخلق بينهم صراعات قوية وعنيفة داخل الكيان الأدبي، والفكري ،والثقافي الوطني الواحد.كما استطاعت أيضا أن تخلق لهم مبررات الصراع بينهم وتدعيم النعوت والصفات. لم يتريث المتفرنسون في اتهام المعربين بالتخلف والتحجر، والتراثيين،والسلفيين،،والظلاميين ،والإرهابيين، والرجعيين. كما لم يتريث المعربون في اتهام المتفرنسين بمخلفات الاستعمار، والخونة، وفاقدي الوطنية، وأعداء الوطن، والتاريخ، والشعب،والثقافة الوطنية،والانتماء التاريخي والعقائدي...لقد أبدعت المنظومة اللغوية المتفرنسة، والفرنسية، وفرنسا في حد حداتها، إطارا لغويا، وأدبيا، وفكريا، من اجل ضمان بعض الشرعية لهذه الجماعة، وأسمته الآداب المغاربية المكتوب باللغة الفرنسية .لقد تبنى المغاربيون هذه التسمية ووقفوا إزاءها مواقف مختلفة .فالبعض تبناها لغة، وفكرا، واديولوجية ، وصنع منها هويته، وانتماءه، وظل محافظا عليها، ومحتفظا ومتمسكا بها، ومواصلا إبداعاته باللغة الفرنسية دون هوادة أو انقطاع.في حين أن البعض من هذه الزمرة كان على علم ودراية معرفية واديولوجية بهذه التسمية، ولهذا التصنيف، ولأبعاده وخلفياته الاديولوجية ،فبرروا تبنيهم للغة الفرنسية على أنها وسيلة للكتابة وللتعبير فقط. فلد ولدوا وتربوا في ظروف تاريخية وسياسية لم تسمح لهم بالتعلم لغة أخرى غير هذه اللغة والتي شكلت في وقت من الأوقات سلاحا ثوريا وطنيا أيام الاستعمار لفضح أسلوبه الاستعماري الرهيب والتعريف بالقضية الوطنية على المستوى الدولي.فلقد قاوموا الاستعمار بلغته.إن هؤلاء الكتاب لم يتنكروا للغة العربية، ولا للتراث العربي الإسلامي.ولم يتخندقوا ضمن التيار

الفرانكفوني على الرغم من مواصلة الكتابة والإبداع باللغة الفرنسية.في حين أن زمرة أخرى قد اجتهدت وزاوجت الكتابة والإبداع باللغة الفرنسية واللغة العربية، واعتبرت أن المسالة اللغوية لا تتعدى الوسيلة التقنية للتعبير والكتابة...أما الزمرة الثالثة من الأدباء والمفكرين فلقد أحسوا بعمق الجرح اللغوي الذي أحدثته ولا تزال تحدثه اللغة الفرنسية في نفسيتهم، فاختاروا التوقف عن الإبداع بهذه اللغة. و بما أنهم لا يحسنون الكتابة باللغة العربية، فلقد توقفوا أصلا عن الكتابة والإبداع معتبرين موقفهم هذا شكل من أشكال المقاومة ورفض لغة المستعمر... وهنا لا بد من" وضع تمييز بين الفرانكوفية كنسق سياسي_ثقافي، وبين فعل الكتابة باللغة الفرنسية. والخطأ كل الخطأ أن نضع بين هذين الصعيدين علاقات سببية أو علية ما، و الدليل على ذلك أن هناك عددا لا بأس به من المثقفين يكتبون بالفرنسية، ولكنهم يعارضون النسق الفرنكوفوني، ويترجون أن يروه يغير لهجته وسياسته وتعاليمه"(بنسالم حميش:في معرفة الآخر 2001،ص.119) .إن الاتجاه الفرنكوفوني المتزمت العنصري، والذي اصطلح على تسميته بالفرنكوفولي يتعدى المسألة اللغوية، ليسافر بها إلى مسألة أكثر خطورة، وأكثر إساءة للشعوب، وللعقيدة، وللانتماء، وللوجود الأخلاقي، والحضاري، والإنساني للشعوب المغاربية ذات البناء الفكري ،و الثقافي، والسياسي الهش، والذي نخرت أسسه المنظومة الكولونيالية الفرنسية من أجل زعزعته كلما سمحت الفرص لذلك، وجعلها دوما وأبدا تابعا لها ،ومسرحا حيا قويا للغتها ،ولثقافتها، ولسياستها، ولاقتصادها.وجعل من الشعوب المغاربية جزء لا يتجزأ من كيانها الاديولوجي الاستعماري.

5. الخاتمة:

و في آخر المطاف، نقول أن المشهد اللغوي المغاربي يحمل بين طياته خطابا ثقافيا، وتاريخيا، وسياسيا، وحضاريا، وعقائديا ، وايدولوجيا قويا.كما أن المطلب اللغوي، هو أصلا مطلب يتعدى في جوهره اللغة في حد ذاتها من حيث الفاعلية الوظيفية، والتعبيرية، والرمزية التواصلية الطبيعية.فاللغة في المغرب العربي هي هذه الوظيفة، مضاف لها وظائف أخرى. وقد ادخل هذا الواقع المتعدد الروافد، والوظائف، المسألة اللغوية في متاهات غير لغوية.بل ابعد من هذا ، فلقد تعقدت المسألة اللغوية وسافرت

بها نحو فضاءات مختلفة لتصبح علامة دالة على انتماءات عرقية، وطبقية، واجتماعية، واقتصادية، واديولوجية. إن تبني إطار تعبيري ما، هو في حقيقة الأمر، موقف ثقافي، واجتماعي، واقتصادي، واديولوجي. ومن هذا المنطلق، لم تكن اللغة بعيدة عن الصراعات التي عاشتها أقطار المغرب العربي منذ استقلالها.فقد كانت ميدانا خصبا للصراعات سياسية، واديولوجية، وتعبيرا صادقا عليها، كما أن مشاكل هذه اللغات ، وفشلها أو نجاحها، مرهون ليس فقط للناطقين بها فقط، وإنما أيضا لمستغليها من اجل تمرير ونشر خطاباتهم السياسية والاديولوجية. وقد نتج عن هذا الواقع اللغوي وغير اللغوي عدد من الاتهامات والتصنيفات ذات الغطاء اللغوي :

- دعاة اللغة العربية والمتمسكون بها والمدافعون عنها : لقد تم اتهامهم بالبعثتين ،والسلفيين، والإرهابيين، والتقليديين، والقوميين ،والتراثيين، والمتخلفين...
- دعاة اللغة الفرنسية والمتمسكون بها والمدافعون عنها: لقد تم اتهامهم بحزب فرنسا، وأنهم من بقايا العهد الاستعماري الفرنسي وامتداد للاديولوجية الكولونيالية...وشاع عنهم عدد من التسميات مثل المتفرنسين أي الناطقين باللغة الفرنسية،والفرانكوفيين ،أي المحبين والمتمسكين باللغة والثقافة الفرنسية.والفرانكوفوليين أي الذين كادت أن تتحول لديهم اللغة الفرنسية وثقافتها إلى عقيدة، وإلى اديولوجية ،وإلى سلاح لمواجهة اللغة العربية. كما خلق هذا الواقع اللغوي الفرنسي ودعاته حالة مرضية مخيفة اسميها أنا شخصيا الفرنسفوبيا، واعني بها ذلك السلوك ،وذلك الأسلوب وتلك الاديولوجية المحملة بعدد من معاني الخوف لدى بعض الناس مما قد تحدثه المسألة اللغوية الفرنسية من أخطار، ومن نتائج سلبية مخيفة، قد تؤثر سلبا على سلامة اللغة العربية، والثقافة العربية، والفكر العربي، والإنسان العربي، ومصيره، وحياته ،في ظل التهافت الاديولوجي والإداري الفرنسي في منطقة المغرب العربي ،والتي لم تستطع إعلان صراحة عن استقلالها الفكري، واللغوي، والاديولوجي.فاللغة الفرنسية، وثقافتها، واديولوجيتها ، لا زالت تحتل مكانا ومكانة قوية وثابتة في المخيال الفكري،

والثقافي، واللغوي، والاديولوجي المغاربي ،فهي لا زالت تسعى من اجل تبقى المنطقة المغاربية على الأقل تابعة لها لغويا وثقافيا، واقتصاديا، وسياسيا، وهذا ما تسعى إلى تحقيقه من خلال تمسكها بانتماء بعض دول من المغرب العربي إلى المجموعة الفرانكفونية مثل المغرب وتونس ومحاولة فرض منطقها من اجل أن تلتحق دولة الجزائر بهذه الجمعية، والتي ظلت الجزائر حكومة وشعبا رافضا لها ،لأنها تمثل في مخياله التاريخي والثقافي امتدادا كولونياليا . وبالتالي إن التخوف اللغوي والثقافي من ظاهرة الفرنسفوبيا شرعي.فقد يجد الإنسان المغاربي نفسه منذ أن يستيقظ صباحا في مواجهة يومية عنيفة مع اللغة الفرنسية .فهي تلاحقه وتطارده أينما حل واستقر. وقد لا يغادر فضاء إداريا، أو تربويا، أو تعليميا بسلام، دون أن تستفزه هذه اللغة وتعاكسه،والتي قد تقف في وجهه لتقذفه بعيدا خارج داره ، وفضائه الشخصي، والوطني، لينعزل محاورا لغته المغاربية التي لم تعد تحميه وتضمن له حقه في الحياة في وطنه الذي قيل عنه ذات يوم انه قد تحرر من فرنسا ومن لغتها...

- دعاة اللغات الأمازيغية والمتمسكون بها والمدافعون عنها: لقد تم اتهامهم بأعداء الوحدة الوطنية وأنهم ضد العروبة وضد الإسلام...وهنا نشير إلى قضية جد مهمة وذلك تفاديا للخلط وللفوضى وللاتهامات الخاطئة والخطيرة والمجانية.فلا يمكن أبدا الشك في مسألة اللغة الأمازيغية.فهي مطلب وطني، وشرعي، وأساسي، وثابت، ومكون من المكونات الأساسية للهوية الوطنية :الأمازيغية والعربية والإسلام.غير انه،وكأي حركة من الحركات الثقافية والسياسية ، والتي قد تعرف الانحراف أو الانفلات، وذلك بسبب اقتحام عناصر تغتنم الفرص من اجل تمرير أفكارها أو الإساءة إلى هذه الحركات نفسها.فان الحركات الأمازيغية قد أصيبت كم من مرة في كيانها، وفي أهدافها، وفي مقاصدها الوطنية والحضارية. ويتجلى هذا في بعض الشعارات التي نادي بها بعض المنضويين تحت لواء الحركات الأمازيغية حين تغنوا بعدائهم للغة العربية والإسلام، وحين ارتموا بدون قيد ولا شرط في أحضان فرنسا واديولوجيتها اللغوية، والثقافية، والفكرية، والعقائدية، وحين جعلوا من فرنسا قاعدتهم الخلفية ومرجعيتهم ،ونموذجهم المثالي ...

...إن اللغة الأمازيغية لغة مغاربية غنية، تمتلك رصيدا أدبيا، وفكريا، وحضاريا، وفنيا غنيا، وكبيرا، وعريقا، وأصيلا. فهو تراث لكل المغاربيين، وليس لمنطقة واحدة بعينيها، أو مجموعة سكنية محددة،أو حركة ثقافية أو سياسية محددة...

وقد يترجم هذا الواقع المتأزم، والمتناقض، والعنيف، بمواقفه وباتهاماته المجانية الحالة الاستثنائية للمشهد اللغوي المغاربي.

6. قائمة المراجع:

- أحمد بوكوس،مسار اللغة الأمازيغية-الرهانات والاستراتيجيات،منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية،ترجمة فؤاد الساعة ومراجعة الحسين المجاهد والوافي النوحي،2013،مطبعة طوب بريس الرباط.
- بنسالم حميش:في معرفة الآخر-منشورات الزمن ،مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2001
- بياربونت وميشال ايزار: معجم الاثنولوجيا والأنثروبولوجيا : ترجمة وإشراف مصباح الصمد ،مجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع،بيروت،الطبعة الأولى ،2006
- عزالدين المناصرة:الهويات و التعددية اللغوية-قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن،دار مجدلاوي للنشر و التوزيع، الأردن ،عمان ،الطبعة الأولى،2004.
- قانون 26-4-1968:خاص بإجبارية تعلم ومعرفة اللغة العربية أو كما اصطلح على تسميتها باللغة الوطنية على كل الموظفين العاملين في القطاع الإداري.
- قانون19-2-1970:خاص بإجبارية استعمال اللغة العربية في كتابة وتحرير كل الوثائق الإدارية والأحوال المدنية.
- قانون 10-1-1973:تعميم تعريب الأختام الرسمية.

- قانون16-4-1976:إجبارية تعريب المنظومة التعليمية والتكوين
- قانون 19-8-1986:إنشاء المجلس الأعلى للغة العربية.
- دستور 1989:المادة الثالثة :اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية.
- قانون 16-1-1991:قانون استعمال اللغة العربية.
- محمد الذوادي:تصدع الهوية العربية الإسلامية في المجتمع التونسي_مجلة الحياة الثقافية الصادرة عن وزارة الثقافة-الجمهورية التونسية-فيفري 2014 العدد248

- Mohand Oulhadj Laceb :Présentation de la problématiqueActes du colloque international-Tamazight face aux défis de la modernité- 15- 17Juillet 2002 –Boumerdès-P.1